MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

قراءة في الاستراتيجية الأمريكية من زاوية أخرى!

من أفغانستان إلى سوريا!

أحمد الرمح

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا

مدخل:

العم سام هو صاحب الكلمة الأخيرة في استقرار الدول النامية ومجتمعاتها؛ وكذلك في اضطراب تلك الدول ومجتمعاتها، والمتابع للسياسة الأمريكية في شرقنا البائس؛ تصيبه الحيرة منها.. ففي الوقت الذي تنادي فيه بالديمقراطية وحقوق الإنسان؛ وتدعو إلى تطبيقها؛ لم تساعد المنتفضين في الربيع العربي على تحقيق هذين المبدأين اللذين تدعو إليهما الإدارة الأمريكية ليل نهار! إنما ساهمت فيما يسمى بـ "الفوضى الخلّاقة" بشكل ما.

لقد مضى على الربيع العربي عقد كامل؛ وصل فيه معظم المنتفضين إلى قناعة بفشل ربيعهم! وما تزال تلك الفوضى وتلك الاضطرابات تضرب تلك المجتمعات ودولها، وزادت الحيرة أكثر بقيام الإدارة الأمريكية بإعلان انسحابها من أفغانستان بعد مفاوضات مع "حركة طالبان" استمرت عامين، تخلت فيها عن جهد استمر نحو عشرين عامًا، كلّف الإدارة الأمريكية أكثر من ٢ تريليون دولار خلال ٢٠ عامًا؛ وأظهرت وثائق أمريكية أن الميزانية التي أُنفقت في أفغانستان تجاوزت الـ ٣٠٠ مليون دولار يوميًا لمدة عقدين، أي حوالي ٥٠ ألف دولار لكل فرد من سكان أفغانستان البالغ عددهم ٤٠ مليون نسمة. كما كانت لها خسائر بشرية؛ إذ بلغ عدد الجنود الأمريكيين الذين قضوا هناك حوالي ٢٥٠٠، كما قُتل ما يقارب ٤٠٠٠ متعاقد مدني أمريكي. كما أودت الحرب في أفغانستان بحياة نحو ٦٩ ألف شرطي عسكري أفغاني و٤٧ ألف مدني، بالإضافة إلى ٥١ ألفًا من مقاتلي المعارضة.(١)

صحيح أنّ الإدارة الأمريكية تركت أفغانستان لقمة سائغة لطالبان؛ ولكنها في الوقت نفسه تركت حالة مقلقة جداً للمجتمع الأفغاني من جهة؛ ومن جهة أخرى مقلقة كثيرًا لدول الجوار كروسيا والصين وحتى إيران، وبالتالي إن عقيدة طالبان وتاريخها؛ تجعلنا لا نراهن أبداً أنها ستغير جلدها، وأن من يظن أنها غيرت فكرها وسياستها وقناعاتها الدينية؛ فهو كمن يراهن على إمكانية أن يكون للثعلب دين يومًا ما. فالعقل المؤدلج عملية تغييره ليست سهلة؛ ولا تكفي بعض التصريحات الإعلامية الطالبانية بأنهم سيمنحون المخالفين لهم العفو والحرية! إذ إن السلوك الطالباني حتى اليوم يسير عكس ذلك بدليل إعدامها لممثل كوميدي، والإعدام الميداني لجنرال من الجيش الأفغاني المنهار؛ وإطلاق الرصاص على متظاهرين رفعوا العلم الأفغاني ضد طالبان؛ فقتلت ثلاثة منهم، إضافة إلى ممارسات ثأرية وانتقامية ستكشفها الأيام القادمة.

وهنا يأتي السؤال المهم: لماذا سمحت الإدارات الأمريكية المتعاقبة بالفوضى خلال الربيع العربي حتى تدمرت سورية وتفكك مجتمعها؟ وكذلك اليمن؛ وتركت لبنان ليحتله حزب اللّه؟ ولماذا اليوم بعد عشرين عامًا من سيطرتها على أفغانستان، تنسحب منها، وتترك المجتمع الأفغاني في حال من الفوضى؛ وعلى أبواب حرب أهلية جديدة!

---

١. مبالغ مالية خيالية وخسائر بشرية هائلة.. كم بلغت تكلفة الحرب في أفغانستان خلال ٢٠ عاما؟

قراءة في الاستراتيجية الأمريكية من زاوية أخرى!

يبدو أن العم سام وصل إلى قناعة بأن عملية تغيير هذه المجتمعات؛ ذات الأغلبية الإسلامية التي تسيطر عليها ثقافة الإسلام السياسي بمدارسه المختلفة سنّيَّة وشيعيَّة باتجاه الديمقراطية، يجب أن تكون من الداخل، لا أن يُفْرَضَ عليها من الخارج، وبالقوة، هذا يعني أن العم سام؛ غيّر استراتيجية سياسته في التعامل مع المنطقة، ولم ينسحب! كما يُظَن للوهلة الأولى!

فقد وصلت الإدارة الأمريكية إلى قناعة بأن محاولة تربية جيلين أو ثلاثة على الديمقراطية بواسطتها وبقوتها في شرقنا البائس؛ لم تكن مفيدة ولا ناجحة! ولم تؤدِ إلى التغيير المطلوب لتلك المجتمعات والدول باتجاه الديمقراطية الحقيقية، وأن السياسة التي رسمتها إدارة "بيل كلينتون" عندما جاءت إلى البيت الأبيض؛ وتمثلت بمحاولة إدخال الديمقراطية إلى تلك المجتمعات والدول تدريجيًا؛ فشلت! ولم تحقق النتائج المرجوة منها؛ ولم يحدث التحول الديمقراطي خصوصًا بعد أن وقعت أحداث أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.(٢)

لقد سارت إدارة "كلينتون" لتحقيق الديمقراطية في المجتمعات ذات الأغلبية الإسلامية بثلاثة اتجاهات:

الأول: الضغط على الأنظمة المستبدة بشرقنا البائس من أجل الإفراج عن المعتقلين السياسيين. وقد حدث هذا في بلدان عدة من شرقنا.

الثاني: دَفعُ الأنظمة المستبدة؛ والمؤسسة العسكرية فيها إلى القبول ولو مؤقتًا بمشاركة الإسلام السياسي في السلطات الثلاث بتلك الدول. وقد تحقق ذلك في مصر والمغرب والأردن ووصل أعضاء من جماعة الإخوان المسلمين لأول مرة إلى البرلمان في مصر، وكذلك في تركيا، ففي يونيو/حزيران ١٩٩٦ وافقت المؤسسة العسكرية التركية لأول مرة على تمرير حكومة ائتلافية بين حزب "الرفاه" الإسلامي بقيادة "نجم الدين أربكان" وحزب "الطريق القويم" الليبرالي الذي تتزعمه "تانسو تشيلر".(٣)

الثالث: صناعة إعلام يسمح للرأي الآخر بالظهور وطرح رؤيته للحل؛ يصل إلى المجتمعات المقهورة والمُسْتَبَد بها؛ لتبدأ مرحلة تَعَلّم الديمقراطية، وكان على رأس تلك المؤسسات الإعلامية "قناة الجزيرة"

---

٢. بيل كلينتون: هو سياسي أمريكي والرئيس الثاني والأربعون للولايات المتحدة خلال الفترة ما بين عام ١٩٩٣ حتى عام ٢٠٠١، يعد ثالث أصغر الرؤساء في تاريخ البلاد بعد ثيودور روزفلت وجون كينيدي.

٣. حكومة نجم الدين أربكان أو حكومة الجمهورية التركية الـ ٥٤ هي حكومة تشكلت في ٢٨ يونيو/ حزيران ١٩٩٦ إلى ٣٠ يونيو/حزيران ١٩٩٧. كانت حكومة ائتلافية شكلها حزب الرفاه وحزب الطريق القويم. حيث كان نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه، رئيسًا للوزراء، وتانسو تشيلر نائبًة له.

التي بدأت بثها في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦ وطرحت شعارها الشهير "الرأي والرأي الآخر" فظهر الإسلامويون على شاشتها؛ وطرحوا آراءهم في التغيير والانتقال إلى الديمقراطية؛ وكذلك سُمِح بظهور زعماء التنظيمات الراديكالية الجهادية فيها؛ وعلى رأسهم أسامة بن لادن ورفاقه، وكان التحول الأكبر بظهور شخصيات سياسية وإعلامية إسرائيلية على قناة الجزيرة، كنوع من أنواع تدريب الرأي العام في شرقنا البائس على الحوار مع الآخر، وسماع الرأي المخالف مهما كان، وسارت على خطوات قناة الجزيرة عدة مؤسسات إعلامية أخرى.

هذه الاستراتيجية الأمريكية في تحقيق التحول بالمجتمعات الشرقية؛ راهن عليها الديمقراطيون الأمريكيون كثيرًا، من أجل تحقيق تغيير تدريجي باتجاه الديمقراطية في تلك المجتمعات؛ كي تمارسها بطريقة صحيحة، رغم أن هناك رأيًا للجمهوريين الأمريكان لا يرى فائدة من ذلك! ولا بد من اتباع سياسة أخرى؛ لتحقيق التحول الديموقراطي في الشرق البائس.

لكن هذه المحاولة للديمقراطيين الأمريكان اصطدمت بحدث قلب القناعات رأسًا على عقب؛ وذلك بوقوع أحداث١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؛ لينتصر رأي الجمهوريين الذي اعتُمِدَتْ سياستُه بأنّ العقل الإسلاموي عمومًا والسلفي خصوصًا لا بد من تغييره أولًا، حتى لو اضطرت أمريكا لاتخاذ إجراءات عسكرية، وهذا ما حصل تمامًا بإدارة بوش الأب في العراق بذريعة تغيير نظام صدام حسين وإحلال نظام ديموقراطي بديلًا عنه، وكذلك في إدارة بوش الابن في أفغانستان بعد أحداث أيلول/سبتمبر.

الاستراتيجية الأمريكية الجديدة

الإدارة الأمريكية الجديدة؛ وصلت إلى قناعة؛ بأن عملية التحول الديموقراطي لتلك البلدان المتشبعة بمفاهيم الإسلام السياسي؛ لن تحققَ التحولَ الديمقراطي ما لم تطبق الإدارة الأمريكية الشعار الصوفي ـ إن صح التعبير ـ "التَخْلِية والتَحْلِية".(٤) وعلى هذا الأساس قامت الإدارة الأمريكية بإشعال الحروب والفوضى في المنطقة؛ ويرى بعض الاستراتيجيين الأمريكيين أن عمر تلك الفوضى ربما يستمر نحو (٣٠) عامًا.

"جون برينان" مدير المخابرات الأمريكية الأسبق في عهد "أوباما" قال ردًا على سؤال صحفي وُجِه إليه قبل رحيله عن منصبه بثلاثة أسابيع: لماذا لا تقوم الإدارة الأمريكية بعمل جدّي لوقف شلال الدم في سورية؟ فأجاب: إنني أعتقد بأن الحرب والفوضى في تلك المنطقة؛ ستستمر نحو ٣٠ عامًا.(٥) وهو بذلك يشير إلى حرب الثلاثين عامًا التي اشتعلت في أوروبا نتيجة حروب طائفية ومذهبية، ورغم دموية تلك الحروب وخرابها لتلك البلدان؛ واستمرارها كل تلك الفترة الطويلة، لكنها نقلت في نهايتها أوروبا إلى مرحلة جديدة؛ إذ اقتنع العقل الأوروبي المتحارب طوال تلك السنوات الدامية، بأن مفهوم الدولة الدينية/المذهبية/الطائفية سبب رئيس في تلك الحروب؛ وبالتالي جاء الانتقال إلى مرحلة الدولة القومية، التي وضعت أوروبا على طريق النهضة، لتصل إلى دولة المواطنة فيما بعد، من خلال معاهدة "ويستفاليا" الشهيرة بألمانيا.(٦)

فعندما تخلى العقل الأوروبي عن الثقافة الدينية/الطائفية؛ وقام بتسوية مسيحية شجاعة، نقلت المجتمعات الأوروبية إلى مرحلة جديدة، تأسست فيها ثقافة الديمقراطية بشكل صحيح؛ حتى وصلت بسيرورتها إلى هذا الشكل المدني الحقوقي الإنساني الذي نراه اليوم. وهذا ما يجب أن يعيه العقل

---

٤. "التَخْلِية والتَحْلِية": مبدأ أساسي من مبادئ التربية الصوفية للمُريد الجديد الذي يدخل عالم التصوف؛ فالتخلية هي تطهير النفس من أمراضها وأخلاقها الرذيلة. وأما التحلية فهي ملؤها بالأخلاق الفاضلة وإحلالها محل الأخلاق الرذيلة بعد أن خليت منها. وقد استخدمنا المصطلح كناية عن الاستراتيجية الأمريكية الجديدة.

٥. جون أوين برينان: ولد ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٩٥٥ المدير الأسبق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، عمل ككبير مستشاري مكافحة الإرهاب للرئيس الأمريكي باراك أوباما، وأصبح مدير فرع الاستخبارات المركزية في السعودية منذ عام ١٩٩٦، ولغاية عام ١٩٩٩، ليتسلم بعدها الإشراف على طاقم الوكالة لغاية عام ٢٠٠١، ليصبح المدير التنفيذي للوكالة عام ٢٠٠٣. درس سياسات الشرق الأوسط وتعلم اللغة العربية في الجامعة الأمريكية في القاهرة.

٦. معاهدة ويستفاليا: هي معاهدتا السلام اللتان دارتِ المفاوضاتُ بشأنِهما في كلٍّ منْ مدينتيْ أوسنابروكَ (بالألمانية: Osnabrückالتي أضحتْ تلقبُ بمدينةِ السلام منْ بعدُ، ومونسترَ (بالألمانية:

الإسلاموي في شرقنا البائس، ويبدو أن هذا العقل ـ بحسب الرؤية الأمريكية ـ لن يؤمن بهذا التحول إلا بعد هذا المخاض الحربي الفوضوي؛ وبذلك تبدأ "التَخِلية" لتتولد منها قناعة "التَحْلِية" التي تتأسس فيها مرحلة الثقافة الديمقراطية بعد مخاض مأساوي؛ يصل فيه الجميع إلى قناعة؛ يتخلون من خلالها عن التشبث بالأفكار الماضوية في تأسيس الدول على أساس ديني أو طائفي أو مذهبي.

هذا يعني أننا في حالة تُطبق علينا نظرية "الفوضى الخلاقة" وهو مصطلح سياسي/عقدي يقصد به تكوين حالة سياسية بعد مرحلة فوضى متعمدة، ولقد طرحتها لأول مرة وزيرة الخارجية الأميركية "كونداليزا رايس" مطلع عام ٢٠٠٥ من خلال حديث صحفي مع جريدة "واشنطن بوست" الأميركية، لتشكيل ما يُعرف بـ "الشرق الأوسط الجديد"، ويتم ذلك عبر نشر "الفوضى الخلاقة " بإشراف أمريكي.(٧)

ويمكن تعريف الفوضى الخلاقة التي يطلق عليها أيضًا الفوضى البنّاءة، بأنّها حالة الفوضى التي تسود نظاماً معيناً في مجال ما، وتؤدّي هذه الفوضى إلى نتائج إيجابيّة وإبداعيّة، ومن وجهة نظر أنصار هذه النظريّة، يتطلب كل من الابتكار والتطوّر، الحريّة والعشوائية من أجل توليد بدائل جديدة، ففي النظام المحدّد والدقيق، لا يمكن إنشاء شيء جديد.. فمثلًا من منطلق سياسي، يمكن تعريف الفوضى الخلاقة بحالة الفوضى التي تحدث نتيجة تخطيط متعمّد من أجل خلق حالة سياسيّة يتوقع أن تكون مريحة وبنّاءة بعد مرحلة الفوضى، ويعتقد أنصار هذه الفرضية بأن خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار؛ سوف يؤدي بالضرورة إلى إنشاء نظام سياسي جديد، يضمن الأمن والازدهار والحريّة، وعادةً ما يكون لهذه الفوضى أهداف أخرى؛ تصب في مصلحة من يقوم على إحداثها.(٨)

(Münsterفي ويستڤاليا، وتمَّ التوقيعُ عليهما في ١٥ مايو/أيارَ لعامِ ١٦٤٨م و٢٤ أكتوبر/تشرينَ الأولِ ١٦٤٨م وحُرِّرَتا باللغةِ الفرنسيةِ. أنهتْ هاتانِ المعاهدتانِ حربَ الثلاثينَ عامًا في الإمبراطوريةِ الرومانيةِ المقدسةِ التي وقعَتْ معظمُها في ألمانيا القديمة بحدودها ما قبل الحرب العالمية الأولى، وحربُ الثمانينَ عامًا بينَ إسبانْيا ودولةُ المقاطعاتِ السبعِ المنخفضةِ المتحدةِ (أو فيما بعد هولنْدا). وقعَها مندوبونَ عنْ كلٍّ منْ الإمبراطورِ الرومانيِّ المقدسِ فرديناندِ الثالثِ (١٦٣٧–١٦٥٧م) وممالكِ فرنْسا، وإسبانْيا والسويدِ، وجمهورية هولندا، والإماراتِ الكاثوليكيّةِ والبروتستانتيّةِ التابعةِ للإمبراطوريةِ الرومانيةِ المقدسةِ. تعتبر اتفاقية "ويستڤاليا" أولَ اتفاقيّةٍ دبلوماسيّةٍ في العصرِ الحديثِ؛ وقدْ أرست نظامًا جديدًا في أوروبا الوُسطى والغربيّةِ مبنيًا على مبدأِ سيادةِ الدولِ.

٧. نظرية الفوضى والفكر الاستراتيجي. ستيف مان. العلوم السياسية. www.semanticscholar.org/paper/Chaos-Theory-and-Strategic-Thought-Mann/2d4cedff480f9962dedd7bd4997f4b7a29e25276

٨. يوسف يوسف: أسرار الثورات العربية والفوضى الخلاقة: جذور المخطط، القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، طبعة: ٢٠١٢، ص:١٩٨.

هذه القناعة الاستراتيجية التي يبدو أن الإدارة الأمريكية في عهد "بايدن" قد وصلت إليها، تقول ما لم يحصل تخريب كامل؛ يجعل العقل الإسلاموي (الإخواني والسلفي) السائد والمسيطر في تلك المجتمعات بعد تلك الحروب والدمار والفوضى، تتغير قناعاته لما يجب أن تكون عليه المجتمعات؛ وبالتالي شكل الدولة.

عندئذ سيتخلى هذا العقل الإسلاموي عن النظريات التي تربى عليها منذ سقوط (الخلافة الإسلامية) وزرعها الإسلام السياسي في ثقافته وسلوكه، على اعتبار أنها من أصول الدين (كالخلافة ـ الحاكمية) وما يترتب لتحقيقها، وعمل قرابة قرن من أجل تحقيقها في دولة يقودها؛ وكانت النتيجة صفرًا بجدارة! وساهمت الأنظمة المستبدة بها كذلك، فتعطلت عملية التنمية والتحضر والتحول الديمقراطي وعصرنة المجتمعات؛ وبالتالي فشلنا في الانتقال إلى نمطية الدول الحداثية، وستأتي "التَحْلِية" بظهور جيل جديد من هذه المجتمعات الإسلامية؛ يرفض نظريات الإسلام السياسي المنسوبة للإسلام ــ الذي هو في حقيقته دين دعوة لا دولة ــ والتي أوصلتها نظريات "أبي الأعلى المودودي" و"سيد قطب" وصولًا إلى "عبد اللّه عزام" و"ابن لادن" حتى "البغدادي" و"الجولاني"، دون أن ننسى المحاولات الإخوانية الفاشلة في الربيع العربي، التي لم تقدم له إلا الخراب والدمار والفوضى بأن النمط التاريخي الذي قدمته الإمبراطوريات الإسلامية منذ الأمويين ثم العباسيين حتى العثمانيين؛ قد عفا عليه الزمن، ولا يمكن أن يكون صالحًا للدولة الحديثة اليوم.

وبالتالي سوف يكفر الجيل الجديد بتلك النظريات، وهذا ما نلمسه بشكل واضح إنْ في سورية أو تونس، وكذلك لبنان الذي أفشل دولته الإسلام السياسي الشيعي بأنموذج "حزب اللّه" وكذلك العراق بعد أن سيطر عليه الإسلام السياسي الشيعي؛ وحوله إلى دولة فاشلة وفاسدة؛ وجعله متأخرًا جدًا في تصنيف الدول النامية؛ حتى كفر العراقيون بالقيادات الإسلاموية كلها؛ وكذلك الحال في اليمن من خلال أنموذج "الحوثي" الذي هو كذلك شكل من أشكال الإسلام السياسي؛ دون أن ننسى فشل القيادة الإسلاموية الإيرانية في إيصال مجتمعاتها إلى مرحلة الاستقرار والأمان الاقتصادي بعد نحو (٤٠) عامًا في السلطة؛ وأيضًا الفشل الإسلاموي في السودان الذي تحالف فيه الإسلام السياسي مع العسكر، إذ وصلت الأجيال المعاصرة إلى أنّ تلك النظريات الإسلامية إنْ كانت صالحة أثناء وجودها بمصاف المعارضة للتحريض ضد الأنظمة معتمدة على خطاب المظلومية؛ لكنها بالتأكيد فاشلة في مرحلة الدولة، وأن الإسلامويين لديهم بأس شديد في المعارضة والعسكرة، ولكن لديهم كذلك بؤس أشد في الدولة والديمقراطية والسياسة.

وبالتالي ستتبنى تلك الأجيال الكافرة بالتجارب الإسلاموية الأطروحات الأمريكية الأساسية الأربعة التي تقوم عليها الدولة الحديثة ــ كما ترى الإدارة الأمريكية ــ المتمثلة: ١ـ الديمقراطية وتشمل المواطنة وحقوق الإنسان. ٢ـ العلمانية. ٣ـ الليبرالية. ٤ـ الدولة الوطنية.

هذا يعني أن ما تذوقته الأجيال الأفغانية خلال الوجود الأمريكي من بعض الحالات الديمقراطية التي كانت مُحرّمة فترة الحرب الأفغانية الأولى؛ وبعد سيطرة طالبان الأولى منتصف تسعينيات القرن الماضي، جعلت

المجتمع الأفغاني يتوقف عن الحروب القبلية والمذهبية؛ لعيش فيه نوع من الاستقرار؛ لن يقبل بعودة "طالبان" مرة أخرى؛ ولن يرضى بنمطية الحياة الجافة معها ما يعني أنه ربما يدخل بحرب أهلية جديدة وفوضى خلاقة؛ بدأت بوادرها بإعلان نجل أحمد شاه مسعود الذي تبتعد قواته عن كابول مسافة (١٥٠ كم) الحرب على طالبان، وكذلك بظهور الزعيم الشيعي "حسن سيد الحيدري" وهو شخصية معروفة كان له حضور ميليشياوي في العراق، وفق ما ترجمته شبكة إيران إنترناشيونال في ٩ايوليو/ تموز٢٠٢١.

إذن؛ يمكننا القول بأن أفغانستان بقيادة طالبان غير مقبلة على الاستقرار؛ إنما على فوضى وحرب أهلية؛ تُوصِلُ المجتمع الأفغاني ليعمل من أجل "التَخْلِية" ليحصل على "التَحْلِية". وأن المجتمع السوري الذي يعيش تحت كنف النظام الديكتاتوري؛ سيكفر بلعبة المقاومة والممانعة نتيجة الظروف الحياتية المأساوية التي يعيشها كل يوم؛ كما كفر الشارع الثوري بقيادة الإسلام السياسي لثورته؛ واقتنع بفشل عملية عسكرة الثورة وأسلمتها.

فهل سنشهد فوضى وحروبًا أهلية طويلة الأمد في أفغانستان؛ وعدم استقرار ومآسي في سورية؛ وكذلك في تونس وغيرها؟ حتى نؤمن بالتخلية لنحصل على التحلية. واللّه أعلم.

MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا